فالواحد منّا قد يمرض ، أو تزول عنه أعراض الثروة أو الجاه ، فصفات وكمالات الكبر ليست ذاتية في أيٍّ منّا ؛ وقد تُسلب ممَّنْ فاء الله عليه بها ؛ ولذلك يصبح من اللائق أنْ يتواضعَ كُلٌّ مِنّا ، وأنْ يستحضرَ ربّه ، وأنْ يتضاءلَ أمام خالقه .

فالحق سبحانه وحده هو صاحب الحق في التكبُّر ؛ وهو سبحانه الذي تبلغ صفاته ومُقوّماته منتهى الكمال ، وهي لا تزول عنه أبداً .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

وساعة نرى ﴿ لا جرم[1] ﴾ فمعناها أنَّ ما يأتي بعدها هو حَقٌّ ثابت ، فـ « لا » نافية ، و « جرم » مأخوذة من « الجريمة » ، وهي كَسْر شيء مُؤْمَن به لسلامة المجموع . وحين نقول « لا جرم » أي : أن ما بعدها حَقٌّ ثابت .

وما بعد ﴿ لا جرم ﴾ هنا هو : أن الله يعلم ما يُسِرون وما يُعلِنون .

وكُلُّ آيات القرآن التي ورد فيها قوله الحق ﴿ لا جرم ﴾ تُؤدّي هذا المعنى ، مثل قوله الحق :

﴿ لا جرم أنَّ لهمُ النَّارَ وأنَّهم مُفْرَطُونَ[2] ﴿٦٢﴾ ﴾ [النحل]

(١) لا جرم : قال الفراء : هي في الأصل بمعني لابُد ولا محالة ، ثم كثرت فحولت إلى معنى القسم وصارت بمعنى حقاً [المصباح المنير ص٥٤] .

(٢) مُفْرَطُون : متروكون منسيون في النار قاله مجاهد . وقال مجاهد : مبعدون . وقال قتادة والحسن : معجلون إلى النار مقدمون إليها . [تفسير القرطبي ٥/٣٨٤٦] .

وكذلك قوله الحق :

﴿لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩)﴾ [النحل]

وقد قال بعض العلماء : إن قوله الحق ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ يحمل معنى « لا بُدَّ » ، وهذا يعنى أن قوله الحق :

﴿لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ .. (٢٣)﴾ [النحل]

لا بُدَّ أن يعلم الله ما يُسرون وما يُعلنون ، ولا مناصَ من أن الذين كفروا هم الخاسرون . وقد حلَّلَ العلماء اللفظ ليصلوا إلى أدقِّ أسراره .

وعلْم الله لا ينطبق على الجَهْر فقط ، بل على السِّر أيضاً ؛ ذلك أنه سيحاسبهم على كُلِّ الأعمال . ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)﴾ [النحل]

وإذا سألنا : وما علاقةُ علْم الله بالعقوبة ؟ ونقول : ألم يقولوا فى أنفسهم :

﴿لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. (٨)﴾ [المجادلة]

وإذا ما نزل قول الحق سبحانه ليُخبرهم بما قالوه فى أنفسهم ؛ فهذا دليل على أن مَنْ يُبلغهم صادقٌ فى البلاغ عن الله ، ورغم ذلك فقد استكبروا ؛ وتأبَّوْا وعاندوا ، وأخذتهم العزة بالإثم ، وأرادوا بالاستكبار الهرب من الالتزام بالمنهج الذى جاءهم به الرسول ﷺ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ(١) ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٤ ﴾

وقوله الحق :

﴿ مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ .. ٢٤ ﴾ [النحل]

يُوضِّح الاستدراك الذى أجراه الله على لسان المُتكلِّم ؛ ليعرفوا أن لهم رباً . ولو لم يكونوا مؤمنين بِرَبٍّ ، لأعلنوا ذلك ، ولكنهم من غفلتهم اعترضوا على الإنزال ، ولم يعترضوا على أن لهم رباً .

وهذا دليل على إيمانهم بربٍّ خالق ؛ ولكنهم يعترضون على محمد ﷺ وما أُنزِل إليه من الله .

و :

﴿ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ٢٤ ﴾ [النحل]

والأساطير : هى الأكاذيب ، ولو كانوا صادقين مع أنفسهم لَمَا أقرُّوا بالألوهية ، ورفضوا أيضاً القول المُنْزل إليهم .

ومنهم من قال :

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ٥ ﴾

[الفرقان]

(١) الأساطير : جمع أسطورة وهى الأحاديث التى لا أصل لها . أو هى جمع أسطار أو جمع سطر : أى كتابات وغلبت على الباطل منها . [القاموس القويم ١/٣١٢] .

ولكن هناك جانب آخر كان له موقف مختلف سيأتي تبيانه من بعد ذلك ، وهم الجانب المُضَادّ لهؤلاء ؛ حيث يقول الحق سبحانه :

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ .. (٣٠)﴾ [النحل]

ووراء ذلك قصة تُوضّح جوانب الخلاف بين فريق مؤمن ، وفريق كافر .

فحين دعا رسول الله ﷺ قومه وعشيرته إلى الإيمان بالله الواحد الذى أنزل عليه منهجاً فى كتاب مُعجز ، بدأت أخبار رسول الله ﷺ تنتشر بين قبائل الجزيرة العربية كلها ، وأرسلت كُلّ قبيلة وفداً منها لتتعرف وتستطلع مسألة هذا الرسول .

ولكن كُفّار قريش أرادوا أن يصدُّوا عن سبيل الله ؛ فقسَّموا أنفسهم على مداخل مكة الأربعة ، فإذا سألهم سائل من وفود القبائل « ماذا قال ربكم الذى أرسل لكم رسولاً ؟» .

هنا يرد عليهم قسم الكفار الذى يستقبلهم : « إنه رسول كاذب ، يُحرِّف ويُجدِّف[١] » . والهدف طبعاً أنْ يصدَّ الكفار وفود القبائل .

ويخبر الحق سبحانه رسوله ﷺ بما حدث ، وإذا قيل للواقفين على أبواب مكة من الوفود التى جاءت تستطلع أخبار الرسول : ماذا أنزل ربُّكم ؟ يردُّون « إنه يُردِّد أساطير الأولين » .

---

(١) التجديف : هو الكفر بالنعم . جدّف الرجل بنعمة الله : كفرها ولم يقنع بها . قال أبو عبيد : يعنى كفر النعمة واستقلال ما أنعم الله عليك . [لسان العرب - مادة : جدف] .

وهذا الجـواب الواحد مـن الواقفـين على أبواب مكة الاربعـة يدلُّ على أنها إجابة مُتفق عليـها ، وسبق الإعداد لها ، وقد أرادوا بذلك أنْ يَصرفـوا وفود القبائل عن الاسـتماع لرسـول الله ﷺ فشبَّهـوا الذِّكْر المُنزَّل من الله بمثل ما كان يرويه لهم - على سـبيل المثال - النضر ابن الحـارث من قصـص القدمـاء التى تتشابه مـع قصص عنتـرة ، وأبى زيد الهلالى التى تُروى فى قُرَانا . وهذه هى الموقعة الأولى فى الأخذ والرد .

ويُعقِّب الحق سبحانه على قوله هذا :

﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

وانظر إلى قوله سبحانه :

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [النحل]

لترى كـيف يُوضِّح الحق سبحـانه أن النفس البشرية لهـا أحوال متعددة ؛ وإذا أسرفتْ على نفسـها فى تلك الجوانب ؛ فهى قد تُسرف فى الجانب الأخلاقى ؛ والجانب الاجتمـاعى ؛ وغير ذلك ، فتأخذ وِزْر كُلِّ ما تفعل .

ويُوضِّح هنا الـحق سـبحـانه أيضـاً أن تلك النفس الـتى ترتكب الأوزار حين تُضل نفسـاً غيرها فهى لا تتـحمل من أوزار النفس التى أضلَّتها إلا ما نتجَ عن الإضلال ؛ فيقول :

﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٥) ﴾ [النحل]

ذلك أن النفس التى تَمَّ إضلالها قد ترتكب من الأوزار فى مجالات أخرى ما لا يرتبط بعملية الإضلال .

والحق سبحانه أعدل من أنْ يُحمّل حتى المُضِل أوزاراً لم يكُنْ هو السبب فيها ؛ ولذلك قال الحق سبحانه هنا :

﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٥) ﴾ [النحل]

أى : أن المُضِلّ يحمل أوزار نفسه ، وكذلك يحمل بعضاً من أوزار الذين أضلّهم ؛ تلك الأوزار الناتجة عن الإضلال .

وفى هذا مُطْلق العدالة من الحق سبحانه وتعالى ، فالذين تَمَّ إضلالهم يرتكبون نوعين من الأوزار والسيئات ؛ أوزار وسيئات نتيجة الإضلال ؛ وتلك يحملها معهم مَنْ أضلوهم .

أما الأوزار والسيئات التى ارتكبوها بأنفسهم دون أنْ يدفعهم لذلك مَنْ أضلُّوهم ؛ فهم يتحمّلون تَبِعاتها وحدهم ، وبذلك يحمل كُلُّ إنسان أحمال الذنوب التى ارتكبها .

وقد حسم رسول الله ﷺ ذلك حين قال : « والذى نفس محمد بيده ، لا ينال أحد منكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه ، بعير له رُغَاء ، أو بقرة لها خُوَار ، أو شاة تَيْعَر[1] » .

وقِسْ على ذلك من سرق فى الطوب والأسمنت والحديد وخدع الناس .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٨٣٢) . والبخارى فى صحيحه (٢٥٩٧) من حديث أبى حميد الساعدى . ومعنى تيعر أى : تصيح . والخوار صوت البقرة .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [النحل]

إنما يلفتنا إلى ضرورة ألاَّ تُلهينا الدنيا عن أهمِّ قضية تشغل بال الخليقة ، وهى البحث عن الخالق الذى أكرم الخَلْق ، وأعدَّ الكون لاستقبالهم .

وكان يجب على هؤلاء الذين سمعوا من كفار قريش أن يبحثوا عن الرسول ، وأن يسمعوا منه ؛ فهم أُميون لم يسبق أنْ جاءهم رسول ؛ وقد قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

[البقرة]

فإذا ما جاءهم الرسول كان عليهم أنْ يبحثوا ، وأنْ يسمعوا منه لا نقلاً عن الكفار ؛ ولذلك سيعاقبهم الله ؛ لأنهم أهملوا قضية الدين ، ولكن العقوبةَ الشديدة ستكون لِمَنْ كان عندهم عِلْم بالكتاب .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً .. ﴿٧٩﴾ ﴾ [البقرة]

ويَصِف الحق سبحانه مَنْ يحملون أوزارهم وبعضاً من أوزار مَنْ أضلوهم :

﴿ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [النحل]

أى : ساء ما يحملون من آثام ؛ فهم لَمْ يكتفوا بأوزارهم ، بل

صَدُّوا عن سبيل الله ، ومنعُوا الغير أنْ يستمعَ إلى قضية الإيمان .

ومن نتيجة ذلك أنْ يبيح مَنْ لم يسمع لنفسه بعضاً ممَّا حرم الله ؛ فيتحمل مَنْ صدَّهم عن السبيل وِزْر هذا الإضلال .

ولذلك نجد رسول الله ﷺ يقول :

« شَرُّكم مَنْ باع دينه بِدُنْياه ؛ وشَرٌّ منه مَنْ باع دينه بِدُنْيا غيره »[(١)] .

فمَنْ باع الدين ليتمتع قليلاً ؛ يستحق العقاب ؛ أما مَنْ باع دينه ليتمتعَ غيرُه فهو الذى سيجد العقاب الأشدَّ من الله .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ[(٢)] عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ[(٣)] وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

ويأتى الحق سبحانه هنا بسيرة الأولين والسُّنن التى أجراها سبحانه عليهم ، ليسلي رسوله ﷺ ؛ ويُوضِّح له أن ما حدث معه ليس بدْعاً ؛ بل سبق أنْ حدث مع مَنْ سبق من الرسل . ويُبلغه أنه

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (١١٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً ، أو يمسى مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا » . وقد أخرج ابن أبى الدنيا فى « ذم الدنيا » أن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : « الخاسر من عمّر دنياه بخراب آخرته ، والخاسر من استصلح معاشه بفساد دينه ، والمغبون حظاً من رضى بالدنيا من الآخرة » .

(٢) خَرَّ : سقط من علوّ إلى سفل بصوت . وخرّ البناء : سقط . [لسان العرب - مادة : خرر] .

(٣) من فوقهم : أى عليهم وقع وكانوا تحته فهلكوا وما أفلتوا . [تفسير القرطبى ٥/٣٨٢٢] .

لم يبعث أىَّ رسول إلا بعد تَعُمّ البَلْوى ويَطم الفساد ، ويفقد البشر المناعة الإيمانية ، نتيجة افتقاد مَنْ يؤمنون ويعملون الصالحات ، ويتواصون بالحقِّ وبالصبر .

والمَثلُ الواضح على ذلك ما حدث لبنى إسرائيل ؛ الذين قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ .. (٧٩) ﴾ [المائدة]

فانصبَّ عليهم العذاب من الله ، وهذا مصير كُلِّ أمة لا تتناهى عن المنكر الظاهر أمامها .

ويقول سبحانه هنا :

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٢٦) ﴾ [النحل]

والمكر تبييت خفىّ يُبيِّته الماكر بما يستر عن المَمْكُور به . ولكن حين يمكر أحد بالرسل ؛ فهو يمكر بمَنْ يُؤيِّده الله العالم العليم .

وإذا ما أعلم اللهُ رسولَه بالمكر ؛ فهو يُلغِى كل أثر لهذا التبييت ؛ فقد علمه مَنْ يقدر على إبطاله . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. (٢١) ﴾ [المجادلة]

وهو القائل :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) ﴾ [الصافات]

وطبَّق الحق سبحانه ذلك على رسوله ﷺ ؛ حين مكر به كفار قريش وجمعوا شباب القبائل ليقتلوه ؛ فأغشاهم الله ولم يبصروا

خروجه للهجرة[1] ولم ينتصر عليه معسكر الكفر بأىٍّ وسيلة ؛ لا باعتداءات اللسان ، ولا باعتداءات الجوارح .

وهؤلاء الذين يمكرون بالرسل لم يتركهم الحق سبحانه دون عقاب :

﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ .. (٢٦)﴾ [النحل]

أى : أنهم إنْ جعلوا مكرهم كالبناية العالية ؛ فالحقُّ سبحانه يتركهم لإحساس الأمن المُزيف ، ويحفر لهم منْ تحتها ، فيخرّ عليهم السقف الذى من فوقهم . وهكذا يضرب الله المثَل المعنوى بأمرٍ مُحَسٍّ .

وقوله الحق :

﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. (٢٦)﴾ [النحل]

يُوضِّح أنهم موجودون داخل هذا البيت ، وأن الفوقية هنا للسقف ، وهى فوقية شاءها الله ليأتيهم :

﴿الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ (٢٦)﴾ [النحل]

وهكذا يأتى عذاب الله بَغْتة ؛ ذلك أنهم قد بيَّتوا ، وظنوا أن هذا التبييت بخفاء يَخْفَى عن الحىِّ القيوم .

ولَيْتَ الأمرَ يقتصر على ذلك ؛ لا بل يُعذِّبهم الله فى الآخرة أيضاً :

---

(١) اجتمعت قريش على قتل رسول الله ﷺ فأخذوا من كل قبيلة شاباً فتياً ليضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل فلا يستطيع بنو هاشم الأخذ بثاره ، فأتاه جبريل قائلاً : لا تبت هذه الليلة على فراشك . ولزم المشركون بابه ينتظرون نومه ليقتلوه ، ولكنه ﷺ خرج عليهم وفى يده حفنة من التراب فنثرها على رؤوسهم وهو يتلو قوله تعالى : ﴿يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤)﴾ إلى قوله : ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩)﴾ [يس] . فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب [السيرة النبوية لابن هشام ٢/٤٨٣] بتصرف .

﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ[1] وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ[2] فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) ﴾

وهكذا يكون العذاب فى الدنيا وفى الآخرة ، ويلْقوْن الخزْى يوم القيامة . والخزْى هو الهوان والمَذلَّة ، وهو أقوى من الضرب والإيذاء ؛ ولا يتجلَّد أمامه أحدٌ ؛ فالخِزْى قشعريرة تَغْشَى البدن ؛ فلا يُفلت منها مَنْ تصيبه .

وإنْ كان الإنسان قادراً على أنْ يكتمَ الإيلام ؛ فالخزْى معنى نفسى ، والمعانى النفسية تنضح على البشرة ؛ ولا يقدر أحد أنْ يكتمَ أثرها ؛ لأنه يقتل خميرة الاستكبار التى عاش بها ذلك الذى بيَّت ومكرَ .

ويُوضِّح الحق سبحانه هذا المعنى فى قوله عن القرية التى كان يأتيها الرزق من عند الله ثم كفرت بأنعم الله ؛ فيقول :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً[3] كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً[4] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

---

(١) أخزاه : أهانه وفضحه . [القاموس القويم ١/١٩٢] . ويخزيهم : أى يفضحهم بالعذاب ويذلهم به ويهينهم ، قاله القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٢٢) .

(٢) تشاقون : تخالفون وتعادون وتحاربون . [لسان العرب - مادة : شقق] .

(٣) المقصود بالقرية هنا مكة على أرجح الأقوال التى نقلها ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٨٩) والقرطبى (٥/٣٩٢١) وساق القرطبى قولاً عاماً أنها أى قرية كانت على هذه الصفة .

(٤) رَغْد العيش : اتسع وطاب . وقال تعالى : ﴿ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا .. (٣٥) ﴾ [البقرة] أى : أكلاً طيباً مُوسَّعاً عليكم فيه . [القاموس القويم ١/٢٦٩] .

أى : كان الجسد كله قد سار مُمتلكاً لحاسة التذوق ، وكان الجوع قد أصبح لباساً ؛ يعانى منه صاحبه ؛ فيجوع بقفاه ، ويجوع بوجهه ، ويجوع بذراعه وجلده وخطواته ، وبكل ما فيه .

وساعة يحدث هذا الخزى فكُلُّ خلايا الاستكبار تنتهى ، خصوصاً أمام مَنْ كان يدَّعى عليهم الإنسان أن عظمته وتجبُّره وغروره باقٍ ، وله ما يسنده .

ويتابع سبحانه متحدياً :

﴿ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ .. (٢٧) ﴾ [النحل]

أى : أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم ؛ فجعلتم من أنفسكم شُقَّة ، وجعلتم من المؤمنين شقَّة أخرى ، وكلمة ﴿ تُشَاقُّونَ ﴾ مأخوذة من « الشق » ويقال : « شَقَّ الجدار أو شَقَّ الخشب » والمقصود هنا أنْ جعلتم المؤمنين ، ومَنْ مع الرسول فى شُقَّة تُعادونها ، وأخذتُم جانب الباطل ، وتركتُم جانب الحق .

وهنا يقول مَنْ آتاهم الله العلم :

﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) ﴾

[النحل]

وكان هذا الأمر سيصير مشهداً بمحضر الحق سبحانه بين مَنْ مكروا برسول الله ﷺ ، وسيحضره الذين آتاهم الله العلم .

والعلم - كما نعلم - يأتى من الله مباشرة ؛ ثم يُنقَل إلى الملائكة ؛ ثم يُنقَل من الملائكة إلى الرُّسل ، ثم يُنقل من الرُّسُل إلى الأمم التى كلَّفَ الحق سبحانه رسله أنْ يُبلِّغوهم منهجه .

وكَمـا شهـدتْ الدنيا سقـوط المناهج التى اتبعـوها من أهوائهم ، وسقوط مَنْ عبدوهم من دون الله سيشهد اليوم الآخر الخزْى والسوء وهو يحيط بهم ، وقد يكون الخِزْى من هَوْل الموقف العظيم ، ويحمى الله مَنْ آمنوا به بالاطمئنان .

ونعـلم أن الرســـول ﷺ قـــد قـــال : « ألا هل بـلغت ، اللـهم فاشـهد »[1] .

وكما بلَّغَ رسولُ الله أمته واستجابتْ له ؛ فقد طلب منهم أيضاً أن يكونوا امتداداً لرسـالته ، وأنْ يُبلِّغوها للناس ، ذلك أن الحق سـبحانه قد منع الرسالات من بعد رسالة محمد عليه الصلاة والسلام . وصار من مـسـئولـية الأمـة المـحـمـدية أنْ تُبلِّغ كل مَنْ لم تبلغـه رسـالة الرسول ﷺ .

وقد قال ﷺ : « نَضَّر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها ، وأدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فَرُبَّ مُبلَّغ أوْعَى من سامع »[2] .

والحق سبحانه هو القائل[3] :

---

(١) ورد هذا القول فى أحـاديث كثيرة منهـا حديث عبدالله بن مـسعود الذى أخرجـه مسلم فى صـحيحـه (٣٧٨) قـال : خطبنا رسول الله ﷺ فـأسند ظهـره إلى قبـة آدم ، فقـال : ألا لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة . اللهم هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

(٢) أخرجه أحمد فى مـسنده (١/٤٣٧) والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجة فى سننه (٢٣٢) والحميدى (١/٤٧) من حديث عبدالله بن مسعود .

(٣) عن عبـدالله بن مسـعود رضى الله عنه قال قـال لى رسول الله ﷺ : « اقرأ عـلىّ . فقلت : يا رسول الله ، أقرأ عليك وعليك أنزل . قال : نعم ، إنى أحب أن أسمعه من غيرى ، فقرأت سـورة النسـاء حـتى أتيت إلى هذه الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء] فقال : « حسبك الآن » . فإذا عيناه تذرفان . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحـه (٨٠٠) كتاب صلاة المسافرين ولفظه « رفعت رأسى أو غمزنى رجل إلى جنبى فرفعت رأسى فرأيت دموعه ﷺ تسيل » .